المحاضرة الرابعة/ التعريب وإشكالية التأليف والتعليم:

أهمية اللغة في تحديد الهوية القومية وتثبيتها :

تعد اللغة من العناصر الأساسية لشخصية الأمة والمقومات الرئيسية لهويتها, فكثيرا ما نظر إليها الباحثون والمؤرخون باعتبارها مقياسا على ثبات الأمة وتصديها للتحديات المختلفة أو انسلاخها واندماجها في قومية أخرى غالبة مسيطرة, على قاعدة ابن خلدون الشهيرة(في أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده).

هذه هي أهمية اللغة في تثبيت الهوية. ترى كيف وصلت العربية إلى هذه البلاد أول مرة؟ وماهي التحديات التي نهض إلى تخطيها (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)؟ وهل أثمرت جهودهم ؟ وهل نحن **خلَف** لهم أم خلْف؟

تمت عملية تعريب المغرب عبر مراحل ومحطات أهمها:

1- الاستقرار: من أهم المحطات التي أسهمت إلى حد كبير في نشر الإسلام وتعريب المغرب وسكانه من البربر هي فكرة تأسيس المدينة، الثكنة للعرب الفاتحين هي القيروان, فسكنوها واستقروا بها, وكانوا قبل ذلك يفتحون المناطق ويعودون من حيث أتوا, فإذا جاؤا في الحملة الأخرى لاستكمال ما بدؤوه من فتح وجدوا أن من أسلم من البربر قد عاد إلى ما كان عليه من الكفر.

كان عقبة بن نافع، بحنكته السياسية وكفاءته العسكرية، هو من تفطّن إلى هذا التقصير في الآداء لدى الفاتحين الأوائل، فقرر بناء القيروان لحاجة عسكرية محضة. لكنه عندما أتمّ بناءها أضاف إلى وظيفتها الأولى مهمة أخرى؛ تضمّنها دعاؤه الله وهو يطوف بها (اللهم املأها علما وفقها).

وفعلا لم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت القيروان عاصمة للمغرب والأندلس معا. وأصبحت مركزا تعليميا وعلميا يجمع علماء كبار، مشهود لهم، في العالم الإسلامي بعد ذلك بحوالي قرن من الزمان.

2- الاهتمام ببناء الجوامع والمساجد: أدّى المسجد والجامع دورا أساسيا في التعليم ونشر العربية, فقد كان الكتّاب جزءا من المسجد, وقد بنيت جوامع كثيرة في المغرب منذ بنى عقبة جامعه الشهير بالقيروان. ثم بنى أصحابه جوامع ومساجد كثيرة, كما بنى بعده أبو المهاجر دينار أول مسجد في الجزائر. وعندما وصلت البعثة التعليمية التي تتكون من عشرة علماء, في مطلع القرن الثاني بنى كل عالم مسجده الذي يعلم فيه الناس ويؤمهم للصلاة بجانب مسكنه, وفي الجانب الآخر منه بنى كتّابا لتعليم الناس وتحفيظهم القرآن. وبنى الوالي عبد الله بن الحبحاب سنة 116هـ جامع الزيتونة المشهور بتونس والذي أصبح فيما بعد مركزا هاما لنشر العلوم والثقافة العربية.

واستمر المغاربة في بناء المساجد والجوامع, وظلت هذه الجوامع تتمتع بمكانة ثقافية علمية مهمة في حياتهم, فكانوا يجتمعون فيها لتحصيل العلوم المختلفة. وكان عكرمة البربري وهو مولى ابن عباس الذي عاد من المشرق، بعد أسره، بعلم غزير قد اتخذ جانبا من جامع عقبة يدرس فيه التفسير والحديث النبوي.

وفي منتصف القرن الثالث هاجرت أسرة قيروانية إلى فاس وأقامت هناك, وإليها تنتسب فاطمة أم البنين التي بنت جامع القرويين الذي تحول بعد فترة قصيرة إلى جامعة يؤمها العلماء وطلبة العلم من أنحاء المغرب والمشرق.

وقد بنيت الجوامع والمساجد في كل العواصم المغربية وتحولت هذه العواصم إلى مراكز علمية ثقافية تؤدي دورها في نشر العلوم, وتعليم البربر العربية, وتحفيظ القرآن للأطفال.

3- جهود الفاتحين في تعريب المغرب: حظي حسان بن النعمان وهو آخر الفاتحين بمكانة خاصة ومهمة. فهو الذي أنهى الفتح العسكري للمغرب عندما هزم الكاهنة, وهو الذي دون الدواوين وعربها, وأصبحت العربية هي اللغة الرسمية للمغرب منذ ثمانينيات القرن الأول للهجرة، وظلت كذلك في العهود اللاحقة حتى عندما أصبح المغرب كله في ظل حكم البربر. وهو الذي ترك في المغرب عند عودته إلى المشرق سبعين رجلا يحفظون البربر القرآن ويعلمونهم شرائع الإسلام.

كما اعتنى الفاتحون الآخرون أيضا بتعليم البربر اللغة العربية وتحفيظهم القرآن الكريم, فقد ترك عقبة بين البربر في حملته على المغرب الأقصى بعض أصحابه يعلمونهم أمور دينهم ويحفظون أبناءهم القرآن, وكذلك فعل موسى بن نصير, فإنه قبل الانتقال إلى الأندلس ترك في قبائل مصمودة جنوب المغرب الأقصى سبعة عشر رجلا من العرب لتعليمهم. وهي جهود تتسم بالاستمرارية والتواصل, ولا شك أن هناك صورا أخرى للعناية الفائقة من الفاتحين والولاة بنشر العربية والعلوم الاسلامية بين البربر.

4- العلاقة بين الإسلام والعربية: إن انتشار الإسلام هو العامل الحاسم الذي جعل من اللغة العربية لغة رسمية في بعض البلدان المفتوحة, فالعربية لم تستعمل رسميا في بلد لم يفتح للإسلام.

ونتيجة لذلك أتيح للعربية الرسوخ في الأقطار التي انتشر فيها ذلك أنه لا يمكن قراءة القرآن وتجويده وترتيله بغير العربية لأنه لا بد من شحن القرآن بقدرة تعبيرية فريدة لا تتوفر إلا في العربية كلغة لها كل الخاصيات الضرورية لذلك.

ترى هل العربية مدينة للإسلام في انتشارها؟ وهل أن اتساع الرقعة التي انتشر فيها الإسلام كان سببا في مضي العربية قدما لتحقيق إنجازات خاصة بها هي الأخرى؟

إن السمو إلى أقصى مستوى هو الذي يسمح بالقيام بتعريب الأمة تعريبا كاملا، ولم يتحقق هذا السمو إلا بالإسلام.

إن نقل القرآن إلى لغات أخرى كثيرا ما أثار مناقشات طويلة علما أن الصلاة لا تكون بالعربية, وبعبارة أخرى لا بديل عن العربية لمن يطلب شعائر الإسلام, ولذلك فإن الدور الفعال للإسلام سيزيل أي نزاع ينجم بين البربرية والعربية.

لا شك أن العربية مدينة للإسلام في انتشارها وتعريب لسان المسلمين من البربر، وإلا فكيف لم تستطع قبل الإسلام تخطي حدود الجزيرة العربية, وما عرفت اكتساح الساحات، وما قهرت اللغات إلا بعد انتشار الإسلام قبلها

شرقا وغربا يلين قلوب الناس ويدعوهم بكل محبة إلى حب العربية لسان الوحي والموحى إليه، ولسان أهل الجنة كما جاء في الحديث. فبه حظيت بالقبول والإتساع، وبه نالت السمعة والمكانة المرموقة.

وأقبل عليها المغاربة بربرا وعربا صغارا وكبارا في الكتاتيب والمساجد والجوامع, وقد بدأ هذا الإقبال والنشاط اللغوي في وقت مبكر جدا، أي مباشرة بعد بناء القيروان وفي هذا الصدد روى غياث بن شبيب قال: « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ص. يمر علينا ونحن غلمة في القيروان، فيسلم علينا ونحن في الكتّاب...» أي أن الدراسة في الكتاتيب بدأت وأصحاب رسول الله ص ما يزالون أحياء.

5- <u>الإقبال على التعليم والرحلة من أجله</u>: ولم يأت القرنان الثالث والرابع حتى توفر للمغرب مجموعة كبيرة من العلماء والأدباء يعمرون مدنه وازدهرت حركة التأليف ازدهارا كان نصيب الإبداع فيها قليلا.

وأقبل المغاربة علماء وطلاب علم على اقتناء الكتب، بل وبدأت المكتبات الخاصة والعامة تظهر في المدن والعواصم، وفي البيوت أيضا.

ومن أشهر العلماء في هذا العهد سحنون وابنه محمد وأسد بن الفرات وابن أبي زيد القيرواني النفزي وابن غانم ولكل منهم مؤلفات في الفقه واللغة والتراجم, كما ظهر الشعراء وأشهرهم بكر بن حماد وهو بربري.

ومما أسهم في ازدهار عملية تعريب المغرب والحركة العلمية عموما هو إقبال المغاربة على الرحلة إلى المشرق طلبا للعلم, فحجوا والتقوا هناك الإمام مالك إمام دار الهجرة, وأخذوا عنه, وكثيرا ما أعجب ببعضهم حتى إنه عرض على ابن غانم السالف الذكر الزواج بابنته على أن يقيم عنده بالحجاز. فامتنع ابن غانم من المقام, وقال إن أخرجتها معي إلى القيروان تزوجتها .

ومنهم من يمضي في الرحلة إلى بغداد فدمشق, وعندما يعودون إلى المغرب يكون زادهم العلمي غزيرا, ومنذ العصور الأولى اشتهر المغاربة بالرحلة طلبا للعلم حتى ذهب بعضهم إلى ذم طلب العلم من الكتب عوض السعي وراء الشيوخ للأخذ عنهم قال أسد بن الفرات:« ضربنا في طلب العلم آباط الإبل, واغتربنا في البلدان ولقينا العلماء وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ومنسج أمه, ويريدون أن يلحقونا »، وبعد ذلك بحوالي خمسة قرون رأينا ابن خلدون يذهب في الاتجاه نفسه حول أهمية الرحلة في طلب العلم كبديل عن الإقبال على التآليف والتصانيف يقول:« إن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى, فعلى كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها...فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها » ويخلص إلى النتيجة الحتمية بقوله:« فالرحلة لا بد منها في طلب العلم ». ويندر أن تجد عالما أو أديبا مغربيا لم يرحل في طلب العلم.

6- <u>جهود الهلاليين</u>: لا شك في أن هذه الجهود باتجاه تعريب المغرب كان العامل الحاسم في الفتح اللغوي للمغرب. أشير هنا طبعا إلى القبائل العربية الهلالية ودورها في تعريب البربرية بل واستعراب البربر أنفسهم.

لقد استكملت قبائل بني هلال ما لم يتمكن منه العرب الأوائل, فقد انساحوا في البسائط والتلول والصحارى, وساكنوا البربر, واختلطوا بهم, وأثمرت جهودهم بعد ثلاثة قرون من الانتشار تعريبا واستعرابا يكاد يكون شاملا. وقد أعان العرب الهلاليين في مهمتهم هذه هجرات كبيرة عربية شبه معربة جاءت من الأندلس خلال القرن السابع بعد تساقط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى وضياع أكثر من نصف الأندلس إذ لم يبق في يد المسلمين سوى شريط على سيف البحر كما قال ابن خلدون, وكان تأثير هذه الهجرات في المدن الساحلية والمراكز الثقافية والعواصم السياسية كبجاية وقسنطينة والجزائر وتلمسان ووهران وفاس والقيروان وتونس.

وهكذا تضافرت هجرات الهلاليين من الشرق وهجرات الأندلسيين من الغرب لتكتبا ملحمة تعريب المغرب (البربر).

يقول ابن خلدون وهو يعدد مواطن البربر بعد وصول الهلاليين وانتشارهم:« فغص المغرب بساكنه من أمم لا يحصيهم إلا خالقهم » وهذا العدد الكبير من الهلاليين كثيرا ما شبه في المصادر التاريخية " بالجراد " ربما لأنهم أفسدوا وخربوا العمران كما يقول ابن خلدون في عبارته الشهيرة « في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ». ولكنهم أيضا غلبوا البربر في مواطنهم يقول عن المغرب الأوسط « وقبائله كلهم مغلوبون للعرب من زعبه» وعندما يتقدم شرقا يضيف « وأما بلاد بجاية وقسنطينة فهي دار زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة. وهي اليوم ديار للعرب إلا ممتنع الجبال وفيها بقاياهم ». واختلط العرب بهوارة التي امتد نفوذها ونشاطها إلى ليبيا وهي بطون كثيرة, يقول ابن خلدون: « وهم أهل بقر وشاء وركوب الخيل) وفيهم (ظواعن وآهلين توزعتهم العرب من ذياب فيما توزعون من الرعايا وغلبوهم على أمرهم...فتملكوهم تملك العبيد, للجباية منهم والاستكثار منهم في الانتجاع والحرب » وعندما ينتهي من مسح مناطق المغرب ذاكرا ساكنيها من البربر والطارئين عليهم من العرب الغالبين. يقول عن البربر: « وقد تبدو معهم ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم ».

إن تأثير الهلاليين في البربر تجلى في نشر لغة التخاطب العربية بين القبائل البربرية, وكان احتكاكهم ببعض القبائل عاملا حاسما وفعالا في تعريبها تعريبا كاملا.

واستمرت عملية التعريب التي انتهت إلى استعراب البربر أنفسهم على أيدي الهلاليين طوال قرون حتى لم تعد البربرية أداة تخاطب إلا بين بربر الجبال (جرجرة والأوراس) والأماكن النائية في جنوب الصحراء (الهقار), ولو قبلت هذه القبائل الاحتكام إلى عناصر القوة الذاتية في لغتها ورضيت بالاحتكاك, ولم تنعزل، لما كان هناك من يتكلم البربرية اليوم, لأن نتيجة الصدام ستكون بالتأكيد لصالح العربية التي يسندها الإسلام بالقوة المادية والعسكرية ويسندها القرآن بالقوة المعنوية والأسلوبية, وتسندها القرابة بين اللغتين, ويسندها أخيرا، وربما ليس آخرا، عزم وهمة عالية من العرب الأوائل (عرب الفتح) والأواخر(الهلاليون) لكل التحديات والصعوبات. ولكن الطبيعة الجبلية الوعرة للأوراس وجرجرة, والمناخ القاسي شتاء حالا دون تكلل الجهود بالنجاح المرتجى, فبقي بعض البربر في أعالي الجبال يفضلون معاناة قساوة الطبيعة على النزول إلى ساح النزال.